في السوق القديم

الاستاذ بدر شاكر السياب عرفه العالم العربي شاعراً حلق في سماء الفكر ، واديباً يعوم في بحر المعاني ، وقد اتحفنا كما هو شأنه بهذه القصيدة الفنية .

البيان

— ١ —

الليل ، والسوق القديم ..
خفتت به الاصوات الا غمغمات العابرين
وخطى الغريب وما تبث الريح من نغم حزين
في ذلك الليل البهيم .
الليل ، والسوق القديم ، وغمغمات العابرين ،
والنور تعصره المصابيح الحزانى في شحوب ،
— مثل الضباب على الطريق —
من كل حانوت عتيق ،
بين الوجوه الشاحبات ، كأنه نغم يذوب
في ذلك السوق القديم .

— ٢ —

كم طاف قبلي من غريب ،
في ذلك السوق الكئيب ،
فرأى ، وأغمض مقلتيه ، وغاب في الليل البهيم .
وارتج في حلق الدخان خيال نافذة تضاء ،
والريح تعبث بالدخان ...
الريح تعبث ، في فتور واكتئاب ، بالدخان ،
ويصدى غناء
ناء يذكر بالليالي المقمرات وبالنخيل ،
وأنا الغريب ... أظل أسمعه وأحلم بالرحيل
في ذلك السوق القديم .

— ٣ —

وتناثر الضوء الضئيل على البضائع كالغبار ،
يرمي الظلال على الظلال ، كأنها اللجن الرتيب ،
ويريق ألوان المغيب الباردات ، على الجدار
بين الرفوف الرازحات كأنها سحب المغيب :
الكوب يحلم بالشراب وبالشفاه
ويد تلونها الظهيرة ، والسراج أو النجوم .
ولربما بردت عليه وحشرجت فيه الحياة ،
ولربما امتدت إليه يد ، وعادت في وجوم ،
في ليلة ظلماء باردة الكواكب والرياح ،
في مخدع سهر السراج به ، وأطفأه الصباح !

— ٤ —

ورأيت ، من خلل الزمان ، مشاهد الغد كالظلال :
تلك المناديل الحزانى وهي تومي بالوداع
أو تشرب الدمع السخين ، وما تزال
تطفو وترسب في خيالي — هوم العطر المضاع
فيها ، وخضبها الدم الجاري :
لون الدجى وتوقد النار
يجلو الأريكة ثم تخفيها الظلال الراعشات :
وجه أضاء شجوبه اللهب
يخبو ، ويسطع ، ثم يحتجب
ودم يغمغم وهو يقطر ثم يقطر : مات ... مات !

— ٥ —

الليل ، والسوق القديم ، وغمغمات العابرين ،
وخطى الغريب .
وأنت أيتها الشموع ستوقدين
في المخدع المجهول ، في الليل الذي لن تعرفيه ،

تلقين ضوءك في ارتخاء مثل أمساء الخريف
— حقل تموج به السنابل تحت أضواء الغروب .
تتجمع الغربان فيه —
تلقين ضوءك فى ارتخاء مثل أوراق الخريف
في ليلة قمراء سكرى بالأغاني ، فى الجنوب :
نقر [الدرابك] من بعيد .
يتهامس السعف الثقيل ، به ، ويصمت من جديد !

— ٦ —

قد كان قلبي مثلكن ، وكان يحلم باللهيب ،
حتى أتاح له الزمان يداً ووجهاً في الظلام
— نار الهوى ويد الحبيب —
ما زال يحترق الحياة ، وكان عام بعد عام
يمضي ، ووجه بعد وجه ، مثلما غاب الشراع
بعد الشراع — وكان يحلم في سكون ، في سكون :
بالصدر ، والفم ، والعيون ،
والحب ظالله الخلود .. فلا لقاء ولا وداع
لكنه الحلم الطويل
بين التمطي والتثاؤب تحت أفياء النخيل .

— ٧ —

بالأمس كان وكان — ثم خبا ، وأنساه الملال
واليأس ، حتى كيف يحلم بالضياء — فلا حنين
يغشى دجاه ، ولا اكتئاب ، ولا بكاء ، ولا أنين .
الصيف يحتضن الشتاء ، ويذهبان .. وما يزال
كالمنزل المهجور تعوي في جوانبه الرياح ،
كالسلم المنهار ، لا ترقاه في الليل الكئيب
قدم ، ولا قدم ستهبطه إذا انبلج الصباح .
ما زال قلبي في المغيب
ما زال قلبي فى المغيب فلا أصيل ولا مساء ،
حتى أتت هى والضياء !

— ٨ —

ما كان لي منها سوى أنا التقينا منذ عام
عند المساء ، وطوقتني تحت أضواء الطريق
- ثم ارتخت عني يداها وهي تهمس — والظلام
يحبو ، وتنطفيء المصابيح الحزانى والطريق — :
« أتسير وحدك فى الظلام ؟
أتسير ، والأشباح تعترض السبيل ، بلا رفيق ؟ »
فأجبتها والذئب يعوي من بعيد ، من بعيد :
« أنا سوف أمضي باحثاً عنها ، سألقاها هناك
عند السراب ، وسوف أبني مخدعين لنا هناك . »
قالت — ورجع ما تبوح به ، الصدى — أنا من تريد ! »

— ٩ —

« أنا من تريد . فأين تمضي ؟ فيم تضرب فى القفار
مثل الشريد ؟ أنا الحبيبة كنت منك على انتظار .
أنا من تريد .. » وقبلتني ثم قالت — والدموع
فى مقلتيها — « غير انك لن ترى حلم الشباب :
بيتاً على التل البعيد يكاد يخفيه الضباب
لولا الأغاني ، وهى تعلو نصف وسنى ، والشموع .
تلقي الضياء من النوافذ فى ارتخاء ، فى ارتخاء !
أنا من تريد وسوف تبقي لا ثواء ولا رحيل :
حب إذا أعطى الكثير فسوف يبخل بالقليل ،
لا يأس فيه ولا رجاء »

— ١٠ —

أنا ، أيها النائي القريب ،
لك أنت وحدك ، غير أني لن أكون
لك أنت — أسمعها ، وأسمعهم ورائي يلعنون .
هذا الغرام . أكاد أسمع أيها الرجل الحبيب
لعنات أمي وهى تبكي — أيها الرجل الغريب
إني لغيرك ... بيد أنك سوف تبقى ، لن تسير !
قدماك سمرتا فما تتحركان ، ومقلتاك
لا تبصران سوى طريقي ، أيها العبد الأسير ! »
... ...
— « أنا سوف أمضي فاتركيني ! سوف ألقاها هناك
عند السراب »
فطوقتني وهي تهمس : « لن تسير ! »